الغزو الأسباني للمدن والموانئ الجزائرية وهران والمرسى الكبير أنموذجا1505-1792م

أة. صبرينة الواعر
المدرسة العليا للأساتذة.
جامعة قسنطينة

مقدمة

شهد القرنين 14-15م تنافسا بين دول حوض البحر الأبيض المتوسط، واختلال في موازين القوى خاصة بين قوى جنوب غرب أوروبا، وشمال غرب إفريقيا. فقد عرفت دول شمال المغرب بين القرن 10-13م تقدما في صناعة الأسطول ؛ مما ساهم في انتعاش تجارتها البحرية، وتزايد ثرواتها الاقتصادية. فصارت سيدة البحر الأبيض المتوسط بلا منازع، بعدما كان هذا اللقب- سيدة- حكرا على المدن الإيطالية وعلى رأسها جنوة ونابولي. كما أن دول المغرب حققت هذا النجاح الاقتصادي بفضل موقعها الإستراتيجي ؛ فقد كانت همزة الوصل بين الصحراء وما وراءها، والبحر الأبيض المتوسط. وتتحكم في معظم طرق القوافل التجارية، وتحتضن أهم الأسواق، هذا ما ولّد غضبا لدى الدول الأوروبية التي رفضت هذا التفوق المغربي، وسعت لانتزاع هذه المكانة منها، واتضح ذلك من خلال سلسلة الهجومات والاتهامات التي وجهتها ضد تلك الدول وكان في مقدمة تلك

الهجمات القرصنة[1]. وابتدأت الدول الأوروبية بشن حملاتها على سواحل دول المغرب تدعمها سلطة الكنيسة، وقد تزامن ذلك مع تراجع قوى هذه البلاد التي انقسمت بين بني حفص في تونس وبني زيان في الجزائر وبني مرين في المغرب الأقصى في القرن الثالث عشر الميلادي، في الوقت الذي بدأت فيه الدول الأوروبية تعرف تقدما يحسب له ألف حساب ؛ فقد انتعشت الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وبدأت الحركة العلمية تحقق نجاحا وتقدم وسائل سهّلت عملية ركوب البحار، وتطور بناء الأسطول[2]، وهذا ما حفز الدول الأوروبية على الخروج من محيط القارة الأوروبية والقيام بالكشوفات الجغرافية، وكانت المبادرة من قبل البرتغال واسبانيا، هذه الأخيرة التي حققت صدى واسع النطاق بعد تمكنها من قهر الدولة الإسلامية في الأندلس، وإسقاط آخر قلاعها، غرناطة 1492 في نفس السنة التي وصل فيها كريستوف كولومبس إلى سواحل العالم الجديد –أمريكا- بعدما باركت رحلته الكنيسة والملكة الإسبانية إيزابيلا التي زكّت هي وزوجها فرديناند حركة الاسترداد المسيحي

1- «القرصان هو الشخص حر في النهب، ولا يعترف بأي سلطة فوق إرادته الخاصة، فكان يهاجم بدون تمييز سفن أي دولة، وكان هدفه الوحيد هو النهب، لكن رياس البحر كانوا أشخاصا موكلين من غيرهم للقيام بهذه المهمة، ولم يشنوا حربا إلا على أعداء أميرهم...»، ينظر جون ب. وولف، ص 179.

2 -Berbrugger A, "Mers-el Kabir 1 ; traduction de Suaez", In **Revue Africaine**, Vol.09, 1865, p254

Reconquista، القاضية بضرورة طرد المسلمين، وإعادة مجد الكنيسة المسيحية في شبه القارة الأيبيرية.

وعلى الرغم من سقوط دولة المسلمين في الأندلس، غير أنّ اسبانيا لم تكتف بذلك وقررت ملاحقة المسلمين إلى الشمال الإفريقي ؛ لكنها تفاجأت بقوة إسلامية جديدة قادمة من شرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وهي القوة العثمانية، التي اكتسحت المتوسط واحتلت أجزاء عديدة منه، إلى أن وصلت المغرب مع مطلع القرن 16م، وهناك حدث الاحتكاك بين الأسبان والعثمانيين الذي تحوّل بعد وقت قصير إلى صراع على أشده عرف بالصراع الإسلامي المسيحي في البحر الأبيض المتوسط.

المخطط الأسباني لاحتلال الساحل الإفريقي

بعد نجاح حركة الاسترداد المسيحي في أوروبا بإسقاط دولة المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية كمرحلة أولى، بدأ الأسبان بتطبيق المرحلة الثانية من مشروعهم، وهي إقامة مملكة مسيحية تمتد من شبه الجزيرة الأيبيرية مكتسحة بلاد المغرب وصولا إلى مملكة الحبشة المسيحية، في القرن الإفريقي شرقا. وبذلك تفرض اسبانيا ضغطا، وحصارا على المسلمين، وتجعلهم بين فكي كماشة. وكحل أساسي لتنفيذ المرحلة الثانية من هذا المشروع القائم على نشر المسيحية في إفريقيا، وإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية القديمة، قامت إسبانية باحتلال أهم موانئ مدن الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، كتونس، وطرابلس، والجزائر، وأسيلا. واستهلوا عملياتهم

البحرية بغزو المرسى الكبير لقربه من شبه الجزيرة الأيبيرية، ولأهمية موقعه ومرساه الجيد، وبعدها واصلت اسبانيا شنّ حملاتها على موانئ المغرب الإسلامي الواحدة تلو الأخرى.

وهران والمرسى الكبير قبل الاحتلال الإسباني

في أواخر القرن العاشر للميلاد وصف ابن حوقل المرسى الكبير قائلا : «. ..لمدينة وهران مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح، وما أظن له مثلا في جميع نواحي البربر سوى مرسى موسى، فقد كنفته الجبال وله مدخل آمن، وعليها سور، وماؤها من خارجها جار عليها في واد عليه بساتين وأجنة كثيرة فيها من جميع الفواكه...»[1]. ويضيف المقدسي قائلا : « أن ميناء وهران من أنشط الموانئ في حوض البحر الأبيض المتوسط، وأنّه قد عرف تطورا وازدهارا منذ القرن 11، فهو ميناء حصين تبحر منه وإليه السفن الأسبانية ليلا ونهارا»[2].

كما أشار الإدريسي قائلا : «المرسى الكبير وبه ترسى المراكب الكبار والسفن السفرية وهذا المرسى يستر من الريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد البربر وشرب أهلها من واد يجري إليها من البر وعليه بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة وأهلها

1- أبي القاسم ابن حوقل النصيبي، **كتاب صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، لبنان، 1992، ص 78-79.

2 -Lespes R, "Oran ville et port avant l'occupation Française 1831, In Revue Africaine, Vol 75 ; 1934, p281.

في خصب والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير ومراكب الأندلس إليها مختلفة. ..»[1].

إنّ هذا الوصف الجميل من طرف هؤلاء الجغرافيين والرحالة، لم يأت عبثا، أو مجرد مبالغة من قبل المسلمين كما قال الأوروبيون[2] ؛ بل جاء بناء على واقع عرفه حوض البحر الأبيض المتوسط في الفترة بين القرنين 10 و14م، فقد شهدت موانئ الجزائر وعلى رأسها الموانئ الغربية نشاطا بحريا وتجاريا على قدر من الأهمية، فقد كانت وهران والمرسى الكبير أحدى المنافذ البحرية الرئيسية لإمارة تلمسان، وقد تقاسمت الدور، والأهمية الاقتصادية، والإستراتيجية، مع كل من ميناء هنين، ورشقون. كما كان المرسى الكبير ووهران بمثابة مستودع للتموين بالسلع القادمة من أوروبا. وظلت وهران تتقاسم الأهمية الاقتصادية مع هنين ورشقون، حتى أواخر القرن الرابع عشر فصارت على قمة هرم الأنشطة الاقتصادية للموانئ الجزائرية، خاصة للمميزات الطبيعية التي يتصف بها ميناء المرسى الكبير والتي عادت بالفائدة على البحارة، والأساطيل، التي كانت تجد سهولة الإرساء فيه[3].

وقد شهد القرن 13 م حركة تجارية نشيطة لميناء وهران والمرسى الكبير وذلك بفضل العلاقات الاقتصادية والسياسية، التي

1- الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ص 96-97.

2 -Op.Cit. , p 279. Lespes R,

3 -Ibid., p280

أبرمتها مملكة تلمسان سنة 1229م، مع أوروبا، كتلك التي عقدتها تلمسان مع قطلونيا، وفي عام 1319م ؛ أقيمت علاقات رسمية بين أبي حمو موسى الزياني أمير تلمسان، وجيم الثاني Jacme II حاكم مونبيلليي Montpellier، ومعاهدات أخرى مع Narbonne، ومرسيليا Marseille، واجتمعت كل هذه الاتفاقيات على ضرورة تأمين سلامة التجار، والسفن ضد خطر القرصنة، بالإضافة إلى حرية التجارة في كل الموانئ وحرية تبادل كل السلع ماعدا تلك التي تستلزم تصريحا من السلطان كالقمح مثلا. كذلك حق إرسال قناصل إلى تلمسان والدول الأوروبية المتعاقدة مع إمارة تلمسان[1].

كما سمحت هذه الاتفاقيات التي أبرمتها إمارة تلمسان بين القرنين 13 و14م بإقامة المسيحيين وقناصهم في فنادق بالموانئ والمدن الجزائرية، وتخزين وبيع السلع في القيصرية.

وتطبيقا لهذه الاتفاقيات سارعت المدن الأوروبية لإيجاد مكان لها في المغرب، وأولها جنوة في بداية القرن 13م، ثم البندقة، وفي هذا الشأن كتب ليون الأفريقي قائلا : « ولهذه المملكة-تلمسان- ميناءان مشهوران، ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير، وكان يختلف إليهما كثيرا، عدد وافر من تجار جنوة والبندقية حيث يتعاطون تجارة نافقة عن طريق المقايضة...»[2].

1 -Ibid., p 289-290

2- الحسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي)، **وصف إفريقيا**، ط2، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 09.

وتجدر الإشارة إلى أن الأسبان والأوروبيين قد أخفوا هذه الحقيقة في مؤلفاتهم، فقد كان مينائي وهران والمرسى الكبير، من أشهر الموانئ وأغناها. وأشار ليسبيس Lespes قائلا : «... وهران لم تكن قوية كفاية لكي تكون إقليما مستقلا بذاته، أو ندا للأقاليم المجاورة، حتى أنها أقل مكانة مقارنة مع تنس، وموقعها (وهران) جعلها تتقاذف بين أسياد الشرق، الجنوب، الغرب والشمال، محاصرة من طرف المتنافسين، منهوبة من طرفهم، وأحيانا كثيرة محاصرة من قبل القبائل المجاورة، فقدر وهران ورفاهيتها كان مقرونا بتلمسان جارتها القريبة...»[1]، لكن هذا الكاتب تناسى حقيقة وهران أمام تلمسان إلا وهي إقليم تابع لإمارة تلمسان، تمتد من الساحل إلى الصحراء، ووهران جزء صغير من أراضيها. كما أن الأسبان اعتبروا وهران والمرسى الكبير مجرد حامية Presidio وسجن للأشغال الشاقة، بدعوى أنهما يضمان عددا كبيرا من الأسرى المسيحيين.

هذا التطور الاقتصادي الذي عرفته وهران، من شأنه أن يجعلها مركز استقطاب وتنافس تجاري، وبما أنّها جغرافيا قريبة إلى السواحل الأسبانية فقد سعت هذه الأخيرة لوضع يدها عليها خاصة وأن البرتغاليين كانوا قد قاموا بأول محاولاتهم للسيطرة عليها عام 1501، وأسبانيا كانت ترى نفسها الأحق بالسيطرة على مينائي المرسى الكبير ووهران، فقد صارت معظم شبه الجزيرة

---

1 -Op.Cit, p 279. Lespes R,

الأيبيرية، ملكا لها بما فيها السواحل الجنوبية للأندلس، وصارت أسبانيا ترى مضيق جبل طارق ضيق، وغير كاف للإمبراطورية، وتسعى لتوسيع رقعتها في بلاد المغرب قصد تأسيس مملكة مسيحية كما تدعي. لذلك كانت فكرة احتلال وهران تسيطر على فكر الملك الأسباني فرديناند، وهذا ما قام به بالفعل بعد وقت قصير.

الغزو الأسباني للمرسى الكبير

أعّد الملك الإسباني فرديناند حملة، أوكل أمر قيادتها إلى دون ريمون دي كوردو Don Raymond di Cordoue، وموّلها الكاردينال خيمينيس بأمواله الخاصة. غادر الأسطول ميناء مالقة في 29 أوت 1505م، بقوّة تعدادها 5000 رجل بقيادة دون ديتوفر فرناندیز Don Ditfourre Fernandez. لكن الرياح قذفت الأسطول الأسباني إلى شواطئ المرية، فلم يتمكن من الوصول بسرعة إلى المرسى الكبير، الذي دخلته يوم 11 سبتمبر[1]، هذا التأخير كان لصالح الأسبان، فالسكان الذين كانوا قد اجتمعوا بكثرة بعد سماع أخبار قدوم الأسبان وهجومهم المنتظر، قد استعدوا للمواجهة وانتظروا حتى نفذت مؤنهم، كما أنهم بعد أن ملّوا الانتظار تركوا حامية ضعيفة وغير مسؤولة حول الميناء لا يتعدى عددها 400 رجل، ومع ذلك أبدت مقاومة ضد الأسطول الأسباني، لكن قائد الحامية

1- في حين تشير رواية الكونت سواييز أن احتلال المرسى الكبير كان بتاريخ 13 جويلية 1506. أنظر

Berbrugger A, "Mers-el Kabir 2 ; traduction de Suaez", In **Revue Africaine**, Vol.09, 1865, p340.

سقط قتيلا من أول يوم، فخضع المرسى الكبير لحصار دام ثلاث أيّام، حاول خلالها السكان المقاومة لكن دون جدوى، وبعد وصول أخبار المرسى الكبير إلى المناطق المجاورة سارعت هذه الأخيرة تقديم يد العون والدعم، لكنها دخلت في مناوشات قليلة مع الأسبان ثم عادت أدراجها[1].

كانت المدينة تفتقد للمياه، فخزانات المياه قد نفذت وحلّ الجفاف، فأضطر أعيان المدينة وبقية السكان إلى الاجتماع في مجلس المزوار، حينها تكلم أحدهم وكان في السابق سجينا في مدينة قرطاجنة الأسبانية، وأشار إلى قوّة وشدّة الأسبان وانتصارات ملوكها ضد المسلمين وباقي الشعوب، وذكرهم كيف تمكنت البرتغال من احتلال سبتة، وطنجة، أسيلا، والقصر الصغير على ساحل مملكة فاس. وحذرهم من مغبة الانتظار حتى نهاية الحصار، فقد يقتلون جوعا وعطشا قبل أن تصل إليهم يد الأسبان، لذلك نصحهم بالرحيل وتسليم المرسى الكبير[2].

كان أحد السود المسيحيين، الذين تركهم البرتغاليون في المدينة بعد انهزامهم سنة 1501 ؛ قد فرّ من المرسى الكبير، وتوّجه إلى قائد الحملة الأسباني، واخبره بنفاذ المياه وعدم قدرة السكان على المواجهة، وأنّ قائد الحامية قد قتل. فما كان على سكان المرسى سوى المغادرة تاركين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم تبعا لأوامر

---

1 - p 339. Berbrugger A, "Mers-el Kabir 2 , Op.Cit.,

2 -Ibid., p340-341.

القائد الأسباني، وعليهم حمل ما يستطيعون حمله فقط، وهذا ما تمّ بالفعل ؛ حيث غادر السكان المرسى الكبير يوم 14 سبتمبر بداية من الساعة 09 صباحا، ولم يبقى واحد منهم بعد منتصف النهار[1].

وقد ذكر الأسبان، أنّهم وجدوا 35 أسير مسيحي أغلبهم من البرتغاليين، مع بعض الأسبان، ومن بروفنسال، وفرنسيين وإيطاليين من بينهم 07 نساء كانوا قد أسروا عام 1501.

فيا ترى ما هو سبب احتلال أسبانيا للمرسى الكبير ؟

في الواقع ؛ قدمت أسبانيا حجة مفادها أنّ السبب المباشر لغزوها المرسى الكبير هو أنّ قراصنة من المرسى الكبير أبحروا في ربيع 1505 على متن 12 سفينة بين خفيفة ومسلحة وقاموا بأسر برتغاليين، ثم واصلت سفنهم الإبحار إلى غاية فالنسيا، ونزلوا في جزيرة سانتا بولا Santa Pola، حيث سلبوا ونهبوا وعادوا إلى المرسى محملين بغنائم كثيرة، وهذا ما أغضب أسبانيا التي اعتبرت نفسها راعية الكنيسة الكاثوليكية. يضاف إلى ذلك سبب آخر ؛ وهو اشتداد التنافس بين تجار المرسى الكبير ووهران، والتجار المسيحيين من قرطاجنة ومالقة، هذا التنافس أدى إلى حروب.فرأت أسبانيا ضرورة إخمادها وذلك بجعل ميناء المرسى الكبير ميناء إسباني على الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط[2].

---

1 -Ibid., p 341-342.

2 -Ibid., p337-338.

على كل حال ؛ بعد خروج المسلمين من المرسى الكبير، اقتحم الأسبان المدينة ورفعوا أعلامهم على حصونها، واتجه قائد الحملة إلى مسجد المدينة الكبير، وأصدر قرارا مستعجلا بتحويله إلى كنيسة، عرفت بكنيسة القديس ميكائييل.

ثم اتجه الأسبان إلى تنظيم المدينة، فبدأوا بتحصينها، وإقامة سوق تجاري، ومحاولة إقامة علاقات مع السكان والقبائل المجاورة لخلق نشاط تجاري اقتصادي خاص بهم، لدرجة أنهم أغدقوا المتعاونين معهم بالذهب والفضة لتشجيعهم على المبادلات التجارية معهم.

اعتبرت اسبانيا احتلال المرسى الكبير من أشهر أعمالها في القارة الأفريقية، فأعلنت الاحتفالات، وأقيمت المهرجانات والأفراح طيلة أسبوع احتفالا بقرب انتشار الديانة المسيحية، وقد ضخّم الأسبان احتلالهم للمرسى الكبير، لذلك أسرع الأسبان محاولين التغلغل أكثر نحو الداخل، وكانت مرحلتهم الثانية ؛ تتمثل في احتلال مسرغين، وهي مدينة غير بعيدة عن المرسى الكبير، ويصل بينهما طريق سهلي يمر من تحت حصون مدينة وهران، لهذا قرر حاكم المرسى الكبير دون فرناندیز أن يسلك الطرق الجبلية والأودية، خاصة بعد التعزيزات التي أرسلتها الملكة الأسبانية والمقدرة بـ 5000 رجل وذلك بتاريخ 06 جوان 1507[1].

---

1 -Berbrugger A, "Mers-el Kabir 3 ; traduction de Suaez", In **Revue Africaine**, Vol.09, 1865, p 410-411.

بدأ فرناندیز تحرکه لیلا بتاریخ 07 جوان 1507، ووصلت فجرا إلى مسرغين موطن قبيلة غمارة الرافضة للوجود الأسباني، وباغتتها على الفور مما أدى إلى سقوط المقاومة في وقت وجيز. لكن سرعان ما تحولت مجريات الأحداث، فبالإضافة إلى الضباب الكثيف الذي خيم على القبيلة وصلت إمدادات من القبائل المجاورة التي أسرعت لنجدة سكان مسرغين، والتي حققت نجاحات باهرة ؛ حيث سقط أزيد من 3000 جندي إسباني، وكانت هذه أول هزيمة للأسبان في الجزائر.

لذلك قررت أسبانيا إرسال الدعم الفوري إلى المرسى الكبير لحمايته ضد الغارات، وتحصينه أكثر فأكثر.

احتلال وهران

أبحر الكاردينال الأسباني خيمينيس من مرسى قرطاجنة يوم 19 ماي 1509 يرافقه 15000 مقاتل، ووصلت هذه الحملة إلى المرسى الكبير في اليوم التالي، ونزل الأسطول في الميناء بكل سهولة ويسر، وتكرر نفس الأمر في وهران نفسها بعد شراء ذمة قابض المكوس العام لمدينة وهران اليهودي سطورا.

وقتذاك كانت وهران تحت الملك الزياني الاسمية، لأنها خاضعة لمجلس جماعة، وهم أعيان المدينة جعلوا وهران جمهورية شبه مستقلة. استعدت الحامية للمواجهة، لكن القوة الأسبانية حالت دون نجاحها، فقرر السكان الاحتماء داخل الحصون، لكن

الأسبان كانوا قد وجدوا الثغرة التي سينفذون عبرها إلى داخل المدينة، فقد قام أحد الخونة بفتح أحد أبواب المدينة.

ورغم تمكن الأسبان من دخول المدينة، إلا أنّهم واصلوا تعسفهم وقسوتهم فقتلوا حوالي 6000 مسلم وأسروا 8000، كما قاموا بمصادرة أموال ومؤسسات المسلمين، ولم تنج حتى الأثريات من المخطوطات العربية والزهريات وبعض التحف الأثرية، حيث قام خيمينيس باختلاسها وإرسالها إلى كنيسة طليطلة. كما قام بتحويل المسجدين الكبيرين إلى كنيستين، وأنشأ دير لتنصير المسلمين[1].

والمفاجأة هذه المرة ؛ أنّ الحاكم الزياني في تلمسان أبو حمو الثالث قد أعلن خضوعه للحكم الأسباني، وتقديم جزية سنوية، وكذلك خضوع قبيلة بني عامر للحكم الأسباني[2].

أوضاع الأسبان بالمرسى ووهران 1505- 1559

أقامت أسبانيا حكما عسكريا في كل من وهران والمرسى الكبير اللذان ألحقا على الفور بالتاج الأسباني، وصدرت أوامر على الفور من القيادة الأسبانية ممثلة في شخص الملك فرديناند بإعادة إعمار المنطقتان بالمسيحيين بدل المسلمين، ففي رسالة وجهها الملك الأسباني عام 1510 إلى بيدرو نافارو حاكم المرسى الكبير جاء فيها : « أظنني، وكما كاتبتك عدة مرات، أوضحت أننا نرغب في البقاء والاستقرار

1- جون ب. وولف، الجزائر وأوروبا، ترجمة سعد الله أبو القاسم، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 129.

2 -. Berbrugger A, "Mers-el Kabir 2 , Op.Cit, p339.

في إفريقيا، يجب أن نسيطر على وهران، بجاية، وطرابلس، ونعيد إعمار هذه المناطق بالمسيحيين لا غير»[1]. وفي 23 أكتوبر من نفس السنة كتب الملك إلى أنطونيو دي روفيدا Antonio de Roveda، في أمر يتعلق ببجاية قائلا : « عليكم إتخاذ الإجراءات الضرورية لكي تعيدون إعمار بجاية في الحال بمورسكيين موالين لنا»[2].

بناء على رسائل الملك الأسباني فرديناند ؛ نفهم أنه لم يكن لأسبانيا مخطط استيطان نظامي يسعى للتوغل نحو الداخل بقدر ما كانت تهتم فقط بالسيطرة على المناطق الساحلية.

كما طغى على الإدارة والسياسة الأسبانية فكرة تنصير المسلمين، وأنّ مبرر وجودها داخل الأقاليم الإفريقية هو من أجل خدمة الكنيسة الكاثوليكية فكثيرا ما كان يردد الملك الأسباني قوله أن حروبه كانت لخدمة الله.

على أية حال ؛ إن سيطرة أسبانيا على وهران والمرسى الكبير لم تعد عليها بالربح الوفير، والنتائج المنتظرة، فأبسط احتياجاتها من المؤن والغذاء كانت تأتيها من برشلونة أو فالنسيا، رغم قرب وهران من مملكة تلمسان، والأمر سيان بالنسبة لمليلة التي كانت تعيش على إمدادات مالقة، وبينيون في الجزائر كانت تجلب المياه الصالحة للشرب من جزر البليار، ويفسر هذا الأمر بقدوم القوة

---

1 - Braudel F, "les Espagnoles et l'Afrique du nord de 1492à 1577, In **Revue Africaine**, Vol 69, 1928 , p231.

2 -Ibid., Idem

العثمانية التي أعاقت مخطط السلطة الأسبانية التي آثرت البقاء خلف أسوار وهران وعدم الخروج منها.

لكن مع ذلك لا يجب إغفال فكرة مسعى الأسبان لوضع يدهم على المناطق الداخلية أكثر فأكثر، وبدأوا يفكرون في احتلال تلمسان، وتجلى ذلك في عهد الحاكم دالكوديت d'Alcaudete الذي حاول إعاقة الحاميات التركية والتغلغل نحو الداخل الوهراني التلمساني، خاصة بعد رفض تلمسان تموين وهران والمرسى الكبير بالمؤن الغذائية، مما جلب المجاعة داخل هاتين المدينتين، وسادت عمليات السرقة واللصوصية، وقد كتب دالكوديت عام 1535 يطلب من الملك الأسباني تقديم يد العون لوهران والمرسى الكبير قائلا : « نحن ضد المجاعة كما ضد العدو...»، وعام 1536 كتب دالكوديت قائلا« كان موسم حصاد القمح سيئ، وافتقرت المدينة للقمح، واستاء الجنود وطلبوا العودة إلى قشتالة»[1].

ألح الكونت دالكوديت على إخضاع تلمسان لسلطته، ولذلك سافر إلى أسبانيا في سبتمبر 1542، لتحضير المتطلبات المادية والبشرية للحملة، وكان من الصعوبة تحقيق ذلك خصوصا بعد الإحباط الذي حدث للملك شارل الخامس الذي فشل في احتلال الجزائر، ولم يعد يفكر في إرسال حملة جديدة إلى الجزائر[2].

---

1 - Braudel F, Op.Cit., p 375.

2 -Ruff. P, la domination espagnole à Oran sous le gouvernement du Comte d'Alcaudete 1534-1558, Paris, 1900 , p76.

قرر دالكوديت شن حملة على تلمسان، بعد مساع حثيثة لدى القصر الأسباني وجهّز حملة مكونة من 22 سفينة، خرج بها من أسبانيا يوم 10 جانفي 1543، ووصل إلى المرسى الكبير يوم 15 جانفي، وفي 27 جانفي توجه صوب تلمسان يرافقه 14000 جندي[1]. التقت القوات الأسبانية بقوات أبي زيان وكان الانتصار حليف ألكوديت الذي دخل تلمسان وعاث فيها سلبا ونهبا، ثم عاد إلى وهران تاركا حامية من 1200 جندي.

كما سعى ألكوديت إلى احتلال مستغانم سنة 1547 لكن قوة القبائل المحيطة بها أعاقت حلمه هذا، وقد توالت هزائم ألكوديت الذي حاول مجددا احتلال مستغانم ومسرغين عام 1558 وسقط قتيلا ومن يومها لم يعد يفكر الأسبان في توسيع حدودهم في الغرب الجزائري خاصة بعد سلسلة الخسائر التي تكبدوها.وبذلك ظلت أسوار وهران والمرسى الكبير هي الحدود الأقصى لأسبانيا في الجزائر، رغم التبعية الاسمية لتلمسان إلى المملكة الأسبانية لبعض الوقت. وظل الأسبان يسيطرون على وهران إلى غاية 1705 الباي مصطفى بن يوسف الملقب ببوشلاغم من دخولها وإسقاط الحكم الأسباني، وصارت وهران تابعة للسلطة العثمانية إلى غاية 1732 أين تفاجئ العثمانيون بحملة أسبانية جديدة بقيادة الكونت مونتيمار Comte Motémar الذي تمكن من استرجاع وهران وكل حصونها،

---

1 -Haedo D , Histoire des Rois d'Alger, trad. H D de Grammont, Ed Alger-livre, Alger,2004,p74.

ففي تلك الفترة تمكنت أسبانيا من تنفس الصعداء وانتهت مشاكلها مع الدول الأوروبية وعلى رأسها فرنسا، فقرر الملك الأسباني شن حملة على وهران باعتبارها مقاطعة أسبانية خاضعة للكنيسة الكاثوليكية[1]. وقد حدث هذا في وقت شهدت فيه الأيّالة الجزائرية ضعفا وانكسارا، لتراجع مكانتها في حوض البحر الأبيض المتوسط، وضعف أسطولها، وكذا سلسلة الاتفاقيات التي أبرمها العثمانيون مع الدول الأوروبية والتي فتحت باب الابتزاز والمساومة، خاصة وأنّ السلطة العثمانية قد أبرمتها وهي تشكو الاضطراب واللاتوازن.

نفهم من هذا أن أسبانيا أصرت على إقحام العقيدة المسيحية في سياستها واستمرت في إخفاء حقيقة الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية لوهران والمرسى الكبير، وقد تبثث أسبانيا إدارتها على وهران إلى غاية 1792 وهو تاريخ خروجها النهائي والكلي منها.

دوافع احتلال إسبانيا لوهران والمرسى الكبير

1- الدافع الديني

ساهمت الكنيسة الأسبانية بكل ما لديها من مال وحماس في محاربة المسلمين، فبعد سقوط غرناطة بدأ فرديناند وإيزابيلا في إعداد مشروع لاحتلال المغرب الإسلامي، لكن وفاة هذه الأخيرة سنة 1504

1 -Berbrugger A, reprise d'Oran par les Espagnoles en 1732, In Revue Africaine, Vol 08, 1864, p20.

قد عطل تحقيق المشروع، لكنها تركت وصية تدعو فيها إلى مواصلة هذا المشروع جاء فيها : « يجب أن لا نوقف غزو إفريقيا، ولا إنهاء الصراع ضد الكفار- المسلمين- وهذا كله لأجل خدمة العقيدة.»

احترم الكاردينال خيمينيس دي سيسنيروس Ximénies de Cisneros وصية الملكة، وبرز ذلك في أعماله المخزية ضد المسلمين في الأندلس، وعندما تمّ احتلال المرسى الكبير سنة 1505، أقام خمينيس صلاة جماعية، وأقيم على إثرها احتفالات دامت 08 أيام.

2- الدافع السياسي والاقتصادي

تجسّد في رغبة أسبانيا في تكوين إمبراطورية، خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد ؛ لذلك عملت على احتلال سواحل المغرب الإسلامي، لما لها من أهمية إستراتيجية لقربها من شبه الجزيرة الأيبيرية، فالسيطرة على المرسى الكبير ووهران، وهما أقرب الموانئ إلى أسبانيا سيمكنها من تأمين تجارتها في البحر الأبيض المتوسط، وكذلك يضمن الأمن الدائم والمستمر لمضيق جبل طارق، وهو المنفذ الوحيد للبحر الأبيض المتوسط من الجهة الغربية. وكذلك إحكام السيطرة على مسار السفن المبحرة عبره.

لذلك ركزت أسبانيا في تنفيذ مشروعها التوسعي على الموانئ الإستراتيجية، فبدأت باحتلال المرسى الكبير 1505، وهو أحسن المرافئ الجزائرية، ثم وهران عام 1509. وقد بدلت أسبانيا جهودا مضنية للاحتفاظ بمملكة تلمسان باعتبارها بوابة رئيسية نحو

الصحراء الكبرى وإفريقيا، وبالتالي التحكم في أهم طريق تجاري من الجنوب إلى الشمال، واحتكار التجارة في أهم السلع والبضائع التي كانت في السابق في عهدة المسلمين.

3- الدافع العسكري

تمثل في كثرة الهجومات الإسلامية على الشواطئ الأسبانية خصوصا بعد عمليات الطرد التي تعرض إليها مسلمو الأندلس، فقرر المسلمون في بلاد المغرب نصرة أشقائهم في الأندلس والانتقام لهم، هذا ما جعل أسبانيا تصر على الاستحواذ على الشمال الإفريقي لإيقاف تلك الهجومات التي أضعفت الاقتصاد الأسباني، وساهمت في تقهقر الأنشطة التجارية، بعد أن فضّل تجار جنوة ونابلولي، ومارسيليا وفالنسيا، أسواق وموانئ المغرب الإسلامي، بما فيها وهران والمرسى الكبير، وبخاصة بعد ظهور الصراع الفرنسي الأسباني في حوض البحر الأبيض المتوسط. وبعدها بوقت قصير ظهرت قوة إسلامية جديدة في حوض البحر الأبيض المتوسط تمثلت في الأتراك العثمانيون الذين أعلنوا استعدادهم للتصدي للزحف الأسباني على السواحل المغربية. لذلك أصرت أسبانيا على احتلال الجزائر.

الخاتمة

نفهم مما سبق، أن حقيقة التواجد الأسباني بالموانئ والمدن الجزائرية قد ارتبط بمخطط استعماري واسع النطاق، ذلك لأن الأمر لم يكن ليقتصر على حوض البحر الأبيض المتوسط، بل أن هذا

الأخير كان جزءا في برنامج أسبانيا لغزو الأقاليم والمواقع الإستراتيجية، ومع أنها كانت تتحكم في موقع استراتيجي مهم ألا وهو مضيق جبل طارق باعتباره بوابة المتوسط من الناحية الغربية، غير أنها لاحظت أن قربه من سواحل المغرب الإسلامي من شأنه أن يقلل من أهميته خاصة إذا ما برزت ببلاد المغرب سلطات سياسية قوية، لذلك سارعت اسبانيا إلى إحكام قبضتها على أهم النقاط القريبة من جبل طارق، ووقع الاختيار على المرسى الكبير ووهران بالجزائر، بالإضافة إلى مليلة في المغرب.

كما أن سيطرة أسبانيا على الموانئ الجزائرية سيكسبها ربحا اقتصاديا لعدة اعتبارات، أهمها أن الجزائر بمثابة همزة الوصل بين الصحراء الكبرى والجنوب الأوروبي، وبالتالي تتحكم في أهم الطرق البحرية والبرية التي تقصدها القوافل التجارية، سواء القادمة من أوروبا أو من بلاد السودان في الجنوب، فعلى سبيل المثال احتلال إسبانيا للمرسى الكبير جعلها على مقربة من أكبر الأسواق في بلاد المغرب في ذلك الوقت وهو سوق تلمسان. كما أن سيطرة أسبانيا على وهران والمرسى الكبير، سينعش الحركة التجارية في السواحل الجنوبية لأسبانيا التي عانت من هجومات مسلمي الشمال الإفريقي بعد سقوط غرناطة عام 1492، والتي هجرها تجار جنوة وفينيسيا ومرسيليا وفضلوا عليها موانئ ومدن المغرب الإسلامي بما فيها وهران.

في الأخير أن الحجة التي لازمت الأسبان منذ بداية نشاطهم الاستعماري والمتمثلة في حماية المسيحية ونشرها في كافة الربوع ماهي في الحقيقة إلاّ قناع تخفي به أطماعها الاقتصادية، فالمجازر والإرهاب الذي مارسه الأسبان في العالم الجديد ضد الهنود الحمر بمثابة البرهان على عدم صحة هذه الحجة.